تعليمية البلاغة عند عبد الرحمن الأخضري والطاهر بن عاشور
- قراءة في المنهج والأهداف -

Didactic Of Reotirics Among Abd-Arrahman El-Akhdhari And Tahar Ben Achour Study In Curriculum And Goals

تاريخ الإرسال: 2018-05-05 تاريخ القبول: 2018-05-22

الدكتور: أحمد مداني
جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف- الجزائر

الملخص:

اعتنى علماء بلاد المغرب بما اعتنى به أقرانهم من علماء المشرق بالإنتاج اللغوي والإبداع العلمي في علم البلاغة، فكما نبغ عندهم علماء أسسوا لهذا العلم وطوروا نظرياته وحاولوا تبسيط مسائله العميقة على طالبه، كذلك برز عند المغاربة ثلة من العلماء كان لهم قدم راسخة، وباع طويل في هذا العلم الشريف، وأخص بالذكر أولئك العلماء الذين كتبوا المؤلفات ونظموا الأراجيز في كل فن ، لأجل تبسيط ما كان معقدا من المسائل البلاغية ، وتسهيل ما كان صعبا على معلم هذا الفن أو متعلمه ، ومن هؤلاء الجهابذة الأفذاذ، العالم العلامة والحبر الفهامة سيدي عبد الرحمن الأخضري الذي يعتبر مفخرة الجزائر في ميدان العلوم اللغوية بل مفخرة المغرب العربي كله، ومرجع كله ذلك يعود إلى ذلك النظم الذي وضعه لطلاب علم البلاغة ، والذي وسمه بعنوان " الجوهر المكنون في صدف ثلاثة فنون" ، حيث بسط ما استغلق من مفاهيم بلاغية في كتاب "تلخيص المفتاح" للخطيب القزويني، فرام فيه التسهيل للمبتدئ ، و التبسيط للناشئ ، وممن تمموا هذا المنهج التيسيري واقتفوا هذا الأثر من علماء اللغة في العصر الحديث ، محمد الطاهر بن عاشور في كتابه "موجز البلاغة" ، وهو كتاب تعليمي بالدرجة الأولى، عزم فيه على أن يجعل البلاغة مادة ذلولا، قريبة إلى فهوم الناشئين ، بما عرضه من اقتراحات مبنية على علم واسع وخبرة طويلة.

استنادا إلى ما سبق فإن كلا من العالمين المذكورين آنفا ، اعتمد على منهجية تعليمية معينة تيسيرية للمادة العلمية، حيث إنهما قد أشار إلى أدوات إجرائية تنهض بطالب علم البلاغة إلى الوصول إلى ما يصبو إليه ، كما أنهما يمثلان منهجين متميزين، يمثل الأول منهجا تراثيا قديما، ويمثل الثاني منهجا تعليميا حديثا.

بناءا على هذا التقديم ، فإنه يمكن أن نطرح الإشكال الآتي ، ماهي تمظهرات منهج تعليم الدرس البلاغي لدى عبد الرحمن الأخضري ومحمد الطاهر بن عاشور؟ وما هي أدواته الإجرائية ؟

1- لمحة عن حياة عبد الرحمن الأخضري:

هو عبد الرحمن بن سيدي محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري ، البنطيوسي نسبة إلى قرية بنطيوس بولاية بسكرة، الجزائري المالكي ، ولد سنة 920هـ وتوفي سنة 953هـ (1512/1545) ، العالم الشاعر الناظم، الذي عاش ثلاثا وثلاثين سنة، ولم يمنعه هذا العدد القليل من السنوات التي عاشها ، أن يؤلف على ما يقرب من ثلاثين كتابا.

أخذ عن أبيه محمد الصغير وأخيه الأكبر أحمد الأخضري الفقه ، وعلوم اللغة وعلم المواريث بعد حفظه القرآن الكريم رسما وتلاوة ، ثم واصل تعليمه في قسنطينة ثم جامع الزيتونة بتونس ، وأخذ أيضا عن أبي يحي عقبة في مدينة قفصة ، ثم سكن تونس، وأخذ بعد ذلك عن أبي عبد الله القرجاني ، ثم عن ولده عمرو عن قاسم العقباني ، وبلغ مرتبة الاجتهاد المطلق ، إلا أنه كان لا يفتي إلا بمذهب إمام دار الهجرة ، الإمام مالك بن أنس – رضي الله عنه –.

مؤلفاته:

- مختصر في فقه العبادات على مذهب مالك ، ألفه وهو بن تسع عشرة سنة .
- نظم الجوهر المكنون في ثلاثة فنون ، وهو ابن ثلاثين سنة.
- حلية اللب المصون على الجوهر المكنون.
- أرجوزة الدرة البيضاء في حسن الفتوى والأشياء.
- نظم السلم المرونق في المنطق.
- نظم السراج في علم الفلك.
- الدرر البهية على نظم الأجرومية ، وهو نظم لمتنها.
- أزهر المطالب في هيئة الأفلاك والكواكب.

لقب بالأخضري نسبة لجبل الأخضر بليبيا ، لأن أسرته أقامت به وعاشت فيه ، أو ببلدة تدعى الأخضرية ، و في ذلك يقول عبد الرحمن الجيلالي – رحمه الله – في كتابه تاريخ الجزائر العام ، " إنه منسوب إلى جده الأكبر الأخضر، لأنه من بني الأخضر، وهم من العرب كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون "**1** ، و مع هذا الاختلاف ، يجمع المؤرخون على أن نسبه يرجع إلى العباس بن مرداس السلمي الذي هو أحد أبناء الخنساء الشاعرة المشهورة . وكان صوفيا ذا نزعة صوفية قوية، لكنها صوفية خالية من البدع والتجاوزات العقدية التي يقع فيها بعض الصوفية ، لاسيما صوفية العصر الذي عاش فيه ، وذلك أنه أراد أن يعود بالمنهج الصوفي إلى السنة الصحيحة التي كان عليها سلف الأمة ، من الصحابة والتابعين والعلماء الربانيين الذين كانوا في القرون الأولى التي هي أفضل القرون ، ولقد كان الأخضري – رحمه الله – على طريقة صوفية سنية هي طريقة الشيخ زروق العالم الفاسي ، فيكون بذلك من طلبة زروق**2** ، وقد كانت وفاة هذا العالم سنة (983هـ) والراجح في سنة (953هـ) على ما أكده العلامة الزركلي (ت1396) في كتابه الأعلام**3** إلا إن أبا القاسم

سعد الله المؤرخ الجزائري ، يؤكد أنه توفي سنة (983)هـ) على الراجح ، واحتج بأن المؤلف – رحمه الله – لم يؤلف عقب الجوهر المكنون شيئا، أي بعد سنة (952هـ) ، وكان عمره حينئذ اثنتين وثلاثين سنة .

2- العلامة محمد الطاهر بن عاشور:

عالم وفقيه تونسي ولد (1879م /1296هـ) توفي في رجب 1393هـ الموافق لـ12من أوت 1973م يرجع نسبه إلى أصول أندلسية، تعلم بجامع الزيتونة ، وصار بعد ذلك شيخ هذا الجامع ، اشتهر – رحمه الله – بأنه ترك تفسيرا للقرآن الكريم ، بعنوان " تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" ، وهو الذي يعرف بتفسير التحرير و التنوير، وفيه تعمق في معاني القرآن وإعجازه البياني ،كما ترك آثارا معينة اكل لطالب يريد التمكن من العلوم اللغوية ، نذكر منها :

أ- موجز البلاغة .

ب- شرح لمقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة.

ج- شرح قصيدة الأعشى.

د- ديوان النابغة الذبياني، ومعلقة امرئ القيس وديوان بشار بن برد.

هـ- غرائب الاستعمال .

و- الواضح في مشكلات شعر المتنبي.

3- نظم الجوهر المكنون في صدف ثلاثة فنون:

هو نظم على بحر الرجز، كسائر المنظومات التي كانت سائدة في عصره، لاسيما أن الناظم عاش في عصر الدولة العثمانية التى كانت تسوس الجزائر، ولاريب أن هذا النوع من الشعر كان منتشرا آنذاك، وقد ركد الشعر في ذاك العهد ولم يزد على الشعر التعليمي، ولم تغادر منظومات الشعراء بحر الرجز لأنه سهل ويسير على كل ناظم ،كما أن الناظم يجد فسحة في النظم ،لأنه يجد في كل بيت تصريعا ، وبالتالي لا يتقيد بقافية طوال نظمه،ومن أحل هذه السهولة " أطلف عليه القدماءاسم (حمار الشعر) "4 وتفعيلاته هي :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن – مستفعلن مستفعلن مستفعلن.

وأغلب مؤلفات عبد الرحمن الأخضري كانت أراجيز، وبعضها نظم بالبحر البسيط أو البحر الطويل.

هذا النظم في علم البلاغة، جمع فيه علوم البلاغة الثلاثة وهي :

1- البيان 2- المعاني 3- البديع.

وقد قام الناظم نفسه بشرح نظمه، وهذه عادته غالبا، وعلى الرغم من جودة شرحه ، لا سيما أنه أعلم الناس بنظمه، إلا أن العلماء دائما يستدركون على شروح أصحاب المنظومات ، وذلك أنهم لايتفطنون لهفواتهم أو ما أغفلوه من معلومات ضرورية ، لذا فالشروح الجيدة هي ماكانت على يد شراح آخرين، لأن العصمة ليست لأحد إلا للأنبياء،

وغيرهم معرضون للهفوات، ويعتري مؤلفاتهم النقص، لذا قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البسياني (ت596) في هذا الموضوع ، مبينا عجز الإنسان في ميدان التأليف :"إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده، لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".5

كما قام بشرح هذا النظم أيضا الشيخ العلامة الدمنهوري (ت1183هـ)، وهو من علماء القرن الثاني عشر، وعلى هذا الشرح وضعت حاشية المناوي(ت1031هـ) على شرح الدمنهوري، وكان الاعتقاد السائد في عصر المؤلف أن الكتاب إذا لم تكن له حاشية تفسره فإنه يعتبر ناقصا، كما شرحه العلامة الجزائري الإمام الثغري(ت383هـ) وسماه ب"ا لسر المكنون في شرح الجوهر المكنون ".

4- المنهجية التعليمية عند صاحب الجوهر الكنون:

نظم الجوهر المكنون تيسيرا منه لعلم البلاغة، واختصارا لما جاء في كتبها القديمة التي سبقت هذا النظم، ومن ثم فإن منهجيته لم تخرج عن اتباع طرائق التعليم عند سلفه من علماء البلاغة، فكما هو معلوم لطلبة علوم العربية، أن أول من وضع كتابا لتعليم وتدوين علم البلاغة هو ابن الخليفة العباسي المتوكل على الله ،عبد الله بن المعتز، (ت296هـ)، والذي ألف كتابا سماه "البديع"، وهو باكورة كتب علم البلاغة، وقد ذكر فيه سبعة عشر نوعا من أنواع البديع، وذكر منها الاستعارة والكناية والتورية والتجنيس، وهي كما لا يخفى على طالب العلم ، ليست من مصطلح البديع، وإنما قصد بالبديع مايسميه المتأخرون من علماء البلاغة علم البيان.

ثم ألف قدامة بن جعفر (ت326هـ) كتابا، وذكر فيه ثلاثة عشر نوعا من البديع زيادة على ماذكره عبد الله بن المعتز في كتابه البديع، فتممها ثلاثين نوعا.

ثم أتى بعده أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت395هـ)، ووضع كتابه الموسوم ب "الصناعتين" ، جمع فيه خمسة وثلاثين من أنواع البديع، وبحث فيها مسائل من البلاغة، كالإيجاز والإطناب والبلاغة والفصاحة والحشو والتطويل، وكتابه هذا يعتبر أول كتاب أشار فيه إلى مسائل البلاغة الثلاث، وهي المعاني والبيان والبديع.

ثم ظهر في القرن الخامس الهجري إمام حلبة البلاغيين أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني الأشعري الشافعي المتوفى (ت471هـ)، فأسمى كتابه "أسرار البلاغة" ،وهو كتاب تعليمي في علم البلاغة وأبوابها ،لاسيما علم المعاني، ووضع كتابه الثاني "دلائل الإعجاز"، وهو في علم البيان خاصة ، وقد قصد فيه بيان وجوه إعجاز آي الكتاب العزيز، وتوضيح أسرار النظم القرآني ، فأحكما كتابيه وأكثر فيهما من الشواهد ، فطار هذان الكتابان كلّ مطار، وصار حديث الطلاب و العلماء ، ووضع له القبول قبلة كل باحث في نظم القرآن.

ثم جاء بعده جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ) ، الذي كتب تفسيره المشهور بالكشاف،وعنوانه " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " ورام فيه إظهار أسرار إعجاز آي القرآن الكريم، وشرح

وجوه إعجازه، وكشف خصائصه ومزاياه التي تحدى بها الله البشر جميعا، ووفق في ذلك توفيقا عظيما ، فكان تفسيره ميدانا لتطبيق نظرية النظم التي أتى بها الإمام عبد القاهر.

ثم جاء إثره أبو يعقوب يوسف السّكاكي، المعتزلي الخوارزمي (ت616هـ)، ووضع كتابه مفتاح العلوم، وقام بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام، وهي علم الصرف و علم النحو ثم علم البلاغة، وجمع في قسمه الثالث وهو علم البلاغة زبدة ماقاله السابقون قبله ، وما أحاط به المتقدمون في هذا الفن، ورتب قواعد هذا الفن التي كانت مبعثرة في الأمهات، ورتبها وبوبها، ثم ميز فنون البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان و البديع)، فكان كتابه خيرما كتب في هذا الفن، بل أصبح عمدة الطالبين، ووضع القبول أيضا لهذا الكتاب، و" عند السكاكي توقفت البحوث لبيلاغية ، واقتصرت من بعده على عمل التلخيصات و الاختصارات " 6 ، فقام بشرحه شراح بشروح كثيرة جدا ، ومن أشهر هذه الشروح في جميع بلدان المشرق والمغرب، شرح العلامة مسعود بن عمر التفتزاني ت(793هـ) ، المشهور بالسعد، حيث كان إذا ذكر في كتب المتقدمين ،ذكروه باسم السعد ،ويقصدون بذلك التفتزاني ، فيقولون ذكر السعد في المطول، وغيرها من العبارات.

والعلامة التفتزاني شرح كتاب "مفتاح العلوم" شرحا مطولا سماه المطول، وشرحا مختصرا سماه المختصر، فوضع القبول للمطول أيضا فأكثر عليه العلماء من الشروح والحواشي والتحريرات، ومن أشهر الحواشي حاشية السيد الشريف الجرجاني(ت 806هـ)، صاحب كتاب " التعريفات" وسماها، "حاشية السيد على مطول السعد".

إضافة إلى شروح العلماء لكتاب السكاكي، قاموا أيضا بوضع ملخصات وأشهر تلخيص ،هو تلخيص الإمام الخطيب القزويني (ت739هـ)، وسماه تلخيص المفتاح، وقد لخص فيه جزء البلاغة فقط دون الأجزاء الأخرى، وتلخيص المفتاح هو الذي نظمه الأخضري، وسماه بالجوهرالمكنون في صدف الثلاثة فنون ، ونظمه جلال الدين السيوطي (ت911هـ) أيضا في نظم مطول، سماه "عقود الجُمان".

بقي أن نشير إلى أن هناك قولا ،لا يقل أهمية عن القول القائل بأن البلاغة بدأ التأليف فيها بمجيئ ابن المعتز، وهو الرأي الذي ذهب أصحابه إلى أن البدايات الأولى لعلم البلاغة، بدأت بأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ) و سبب هذه البداية ، أن سائلا سأله عن قوله تعالى :" قل أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم(82) إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم(83) طلعها كأنه رؤوس الشياطين (84)" 7، قائلا كيف يخوف الله عباده بشيء لم يروه وهو الشيطان؟ علما أن المرء يخاف من شيء يعرفه دون شيءآخر لايعرفه، فقال له: إن الله عزوجل خاطب العرب بما تعارفوا عليه ،ألم تسمع قول الشاعر امرؤ القيس :

أتخوفني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فأعجب ذلك السائل واستحسنه، ولماعاد أبو عبيدة إلى بيته بالبصرة، وضع كتابه "مجاز القرآن" 8 ،وصار هذا الكتاب بعد ذلك من المصادر الأولى التي تعلم البلاغة.

4 – منهجية تسيير البلاغة في الجوهر المكنون:

بعد استقراء محتوى ماجاء في متن هذا النظم ، يمكن استنتاج المنهج التعليمي الذي اتبعه الأخضري في تذليل صعوبات الدرس البلاغي، ولعل أهم مميزات هذا المنهج ، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- وضع مقدمة وضح فيها فنون البلاغة الثلاثة ،وبسط الفول فيها عن الفصاحة، فأشار إلى فصاحة الكلمة المفردة وفصاحة التركيب، ثم علم المعاني المتضمن الإسناد الخبري والإسناد العقلي والمسند إليه، والحذف والذكر ومقتضى الظاهر، ثم شرح علم البيان وأقسامه ، فذكر التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة، ثم تحدث عن علم البديع، فأشار إلى المطابقة والتضاد والتكافؤ والمشاكلة والتورية،واللف والنشر وحسن التعليل.

2- مما انفرد به في منهجه ، أنه يؤرخ في آخر كل منظومة ينظمها وفي أي علم من العلوم ، لذا فإنه في آخر هذا النظم ، يؤرخ مشير إلى الشهر والقرن الذي أتم فيه هذا النظم، يقول:

هذا تمام الجملة الممدوحة — من صنعة البلاغة المحمـودة
ثم صلاة الله طول الآمد — على النبي المصطفى المحمود
وآله وصحبه الأخيـار — ماغرّد المشتـاق بالأسحـار
وخر ساجدا إلى الأذقـان — يبغي وسيـلة إلى الرحمـان
ثمّ شهر الحِجّة الميمون — متمّ نصف عاشـر القـرون9

3- خلال ضرب الأمثلة،، وتمثيله على الأساليب في شتى الأقسام البلاغية، يأتي بمصطلحات صوفية، قصدا منه إتمام الجانب التربوي لدى المتعلم، إذ أن المعرفة العلمية كثيرا ماتفتقر إلى المعرفة التربوية التي تعين طالب العلم على التعلم ، وتحفزه إلى المزيد من طلب العلم.

4- منهج الإيجاز في إيراد المعلومة البلاغية ،حيث إنه يحذف ماهو معلوم لدى طالب العلم بالبديهة العلمية، ولعلمه أن المتعلم له معرفة و لو بسيطة ، بالمعلومة البلاغية قبل أن يقرأ كتابه أو نظمه، فمثلا عرف البلاغة عند حديثه عن باب الكلام أما في باب المتكلم فإنه لم يعرفها، اعتمادا على ذكاء القارئ ومعرفته السابقة، ومثل ذلك أيضا تعريفه للفصاحة ولم يعرف البلاغة اكتفاء بالأولى ، والحالة نفسها أيضا لما تحدث عن تعريف المسند إليه باللّام ، حيث يكون لأغراض مستفادة من أحكام علم النحو، وقد أحالها إلى ماتأكد لديه أن المتعلم ذا دراية علمية بالمحذوف ، بسبب ماتقرر عنده من علم النحو، ولأن النحاة شرحوها في كتبهم المطولة و المختصرة، وقد جاء ذلك في البيت السبعين، و البيت الواحد والسبعين من النظم، حيث يقول:

وكونه باللام في النحو علم — لكن الاستغراق فيه ينقسم
إلى حقيقي وعرفي فـرّد — من الجمع أعم فاقتفي10

5- اتباع ماقاله علماء البلاغة قبله، وذلك لربط القارئ بأصول هذا العلم وبمنابعة الأولى، ومن أولئك العلماء الجرجاني والسكاكي، مثل قولهم بعدم الواسطة في المجاز، حين تحدث كل واحد منهما عن أفعال العباد، مثل: وضع قيام افعل العبد، الواقع بخلق الله تعالى، فالواسطة إلى المجاز هو فعل العبد مثل مرض فلان.

6- استعمال منهج التقسيم، قصد توضيح ماهو منغلق من عموميات ومسائل غامضة لدى المتعلم، وذلك حين قسم الحقيقة العقلية باعتبار مطابقة الواقع،كما هو ملاحظ في البيت الثاني والخمسين الذي يقول فيه:

أقسامه بحسب النوعين في جزأيه أربع بلا تكلف.11

7- ضرب الأمثلة التعليمية ،مثل الأمثلة المضروبة في بيان المجاز العقلي، وذلك في البيت الثالث والخمسين ، يقول :

والثاني أن يستبدّ لملابس ليس له بيتي كثوب لابس 12

8- تحكيم الأوجه النحوية في حذف المسند إليه، وذلك لرد المتعلم إلى الاحتكام إلى علم النحو، والاستعانة به على إدراك أبواب علم المعاني خاصة، وفي ذلك يقول على سبيل المثال :

والمبتدأ احذف حتما إن كان الخبر مخصوص نعم نحو حبذا عمر

أو قسما صريحا أو نعتا قطع أو مصدرا موضع نعله وضع13

9- ربط البلاغة بالنحو، وذلك حين تحدث عن كون المسند إليه (المبتدأ) ،مصحوبا بالتوابع الخمسة، وهي (النعت والتوكيد والبدل وعطف النسق وعطف البيان) وذلك في البيت السادس والسبعين:

ووصفه لكشف أو تخصيص وتوكيد أو تنصيص 14

10- يبث أثناء النظم بعض أفكاره التي تدل على نزعته الصوفية ،وكل ذلك قصد تربية طالب العلم تربية روحية، تساعده على طلب العلم و تحصيله ، من خلال بيان رتبة المتعلم الصوفية، ونلمح ذلك ، حين يتحدث عن حالة تعقيب المسند إليه بضمير الفصل ،مثل زيد هو العالم ،مبينا أن العلم مقصور على زيد لا يجاوزه إلى عمرو، كما في البيت الثاني والثمانين.

وفصله يفيد قصد المسند عليه فالصوفي هو المهتدي15

11- الإسناد على أقوال النحاة قبله أمثال ابن مالك وذلك عندما تحدث عن الحذف وأحواله التي توجب حذفه، ومددها كلها إلى العلم بالمحذوف، وهذا ماهو تنبيه للمتعلم أن النحو مرتبط بالبلاغة وأن النحو هو بداية الطريق إلى فنون البلاغة، ومثل قوله في البيت السادس والتسعين، حين قال:

وحذف مسند لما تقدّما والتزموا قرينة ليعلما16

وكأن هذا القول مستنبط من قول ابن مالك:

وحذف مايعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما 17

12- الإعراض عن النقائص التي جاءت في كتب السكاكي والقزويني، وماذلك منه إلا بغية تبسيط المادة العلمية للمتعلم، ومما يدل على ذلك، أنه اختار لنفسه ستة من أنواع الطلب وعدا الدعاء منها، حيث لم يقصد بزيادة هذا النوع على الأنواع الخمسة وهي الأمر والنهي والتمني والنداء والاستفهام، إلا زيادة في الإفهام لدى طالب العلم.

13- استعماله المصطلح النحوي أكثر من المصطلح البلاغي، لأنه يعلم أن المتعلم قد أخذ قسطا من علم النحو قبل تعلمه للبلاغة، ومثل ذلك حين تحدث عن متعلقات الفعل ، ولم يقل المسند مع أنه أشمل في الدلالة، وكاستعماله مصطلح الجملة، في البيت الثامن بعد المائة قائلا:

واسمية الجملة والفعلية وشرطها للنكتة الجليّة 18

14- تركيزه في نظمه على علم المعاني، ليلفت طالب العلم أن علم البلاغة يقوم بشكل أكبر على هذا العلم، حيث بسط القول في بيان أقسامه ،فذكر الإسناد الخبري والمسند إليه والمسند ، ومتعلقات الفعل والقصر والاستثناء والفصل، والإيجاز والطباق والمساواة، وتبسيطه لأضرب الخبر، في البيتين الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين، مع بيان توجيه المخبر إلى إفادة السامع في الأبيات الواحد والأربعين والثاني و الأربعين والثالث و الأربعين.

15- تفصيل الأجزاء والتدقيق في ذكرها، كالتدقيق في بيان مؤكدات المشبه، (القسم وقد وإن ولامُ الابتداء ونوني التوكيد الخفيفة والثقيلة واسميه الجملة)،في البيت السابع و الأربعين.

16- اعتماده على الموازنة لتقريب فهم المادة البلاغية إلى أذهان المتعلمين،كموازنة النفي بالإثبات، من فائدة ولازم الفائدة، والتأكيد على المؤكدات في الابتداء، وذلك في البيت الثامن والأربعين، وبيان أن للجملة أحوالا، فمثلا يوجد للإسناد الخبري ستّ وعشرون حالة.

17- عند التمثيل على المسائل ، يأتي بأمثلة هادفة تربوية، وكأنه كان يؤمن أن العلم لا ينفع دون أمثلة توجيهية نحو الأخلاق النبيلة، كقوله في البيت التاسع والأربعين، عندما تحدث عن مؤكدات النفي قائلا :

بأن وكان لام أو ياء يمين كما جليس الفاسقين بالأمين

أو في البيت الخمسبن حين قال:

إسناد فعل أو مضاهيه إلى صاحبه كفاز من تبتّلا 19

2- منهجية كتاب موجز البلاغة للإمام الطاهر بن عاشور :

أ- سبب وضع للكتاب:

ألف الإمام محمد الطاهر بن عاشور هذا الكتاب التعليمي في علم البلاغة، حين رأي مايعانيه طلبة العلم في جامع الزيتونة، من صعوبات في تلقي علم البلاغة، إذ وجدهم يبدوؤون بكتب صعبة المسالك وعرة المسائل

،كعقود الجمان للإمام السيوطي ،والمفتاح للسكاكي، وأسرار البلاغة للجرجاني، وكلها كتب تنمي الملكة ، ولاتنمي المعرفة التي هي أول مايبدأ به طالب العلم في اكتساب المعارف الأولية للبلاغة، لاسيما أن الإمام مارس التعليم في جامع الزيتونة مددا طويلة، فاكتسب خبرة بمناهج التعليم و طرائقه.

أ- منهجية الطاهر بن عاشور في كتاب موجز البلاغة:

خلال ممارسته التعليمية في الزيتونة ، لاحظ أن طالب العلم يواجه صعوبات كثيرة، يجدها عائقا أمامه لتحصيل علم البلاغة ، وتلك العوائق يمكن تحديدها فيمايلي :

1- الطريقة التي لا تفي بالمقصود أو الهدف التعليمي، وهذا المقصود يتمثل في الفهم من قبل الطالب ، والإفهام من قبل معلم المادة البلاغية.

2- الابتداء بكتب في علم البلاغة عالية المستوى، حيث مستواها مستوى الطالب المبتدئ، لكونها تعتمد على مسائل عميقة المعرفة ، أو تعتمد على شرح مطول لكتاب الإيضاح للقزويني أوكتاب المفتاح للسكاكي.

3- استعجال المعلمين و الطلاب ثمرة هذه الكتب الطوال ، مثل كتاب أسرار البلافة للجرجاني و مفتاح العلوم للسكاكي قبل أن يتمكنوا من أوليات علم البلاغة ، الموجودة في الكتب المبسطة التي وضعت للطلبة المبتدئين .

4- الاعتماد على مختصر الإمام التفتزاني ، قبل أن يعرفوا علما جليلا هو عمدة علم البلاغة ، وهذا العلم هو علم المعاني، كما أن كناب التفتزاني هو كتاب لا يدرسه ولايحصل محتواه العلمي إلا من كان قد أخذ شيئا من أساسيات علم البلاغة .

5- المنهج المتبع في تعليم البلاغة لايراعي سنة المرحلية والتدرج، وهما سنتان كونيتان فضلا عن كونهما سنتين تربويتين تعليميتين .

6- ضرورة وضع كتاب يكون لطلبة هذا العلم ،يكون كمقدمة لمختصر التفتزاني والكتب الأخرى، وفي هذا يقول: "فإني رأيت طلبة العلم يزاولون علم البلاغة بطريقة بعيدة عن الإيفاء بالمقصود، إذ يبتدؤون بمزاولة رسالة الاستشعارات لأبي القاسم الليثي السمرقندي وهي زبدة مستخلصة من تحقيقات المطول والمفتاح، يحشونها قبل إبانها، ثم يتناولون مختصر التفتزاني قبل أن يأخذوا شيئا من علم المعاني ،وفي ابتداءاتهم شوط ، وفي انتقالهم طفرة، فرأيت أن أضع لهم مختصرا وجيزا، يلم بمهمات علم البلاغة، ليكون لهم كالمقدمة لمزاولة دروس مختصر التفتزاني، وضعته وضع من يقصد إلى تثقيف طلبة هذا العلم ،بالمسائل النافعة المجردة من الباحث الطفيفة في فنون البلاغة الثلاثة ، فإن هم أتقنوه فما ضمنت لهم أن ينطقوا بلسان فصيح، ويملؤوا أوطاب أذهانهم من المحض الصريح "20.

1- بدأ بتعريف البلاغة ذاكرا سبب تسميتها، ومقصوده إطلاع الطلبة على تعريف هذا الفن الذين هم بصدد دراسته، و في ذلك يقول: " البلاغة فعالة ،مصدرها بُلغ بضم اللّام، كفَقُه وهو مشتق من بلغ بفتح اللام وبمعرفتها يبلغ المتكلم إلى الإفصاح عن جميع مراده بكلام سهل وواضح ويشمل على مايعين على قبول السامع له ونفُوذه في نفسه ، فلما صار هذا البلوغ سجية بحلول تحصيلها بهذا العلم ،صاغوا له وزن فعُل بضم العين للدلالة على السجية ، فقالوا بلُغ فلان بلاغة " وسموا مجموع مسائل هذا العلم بمصدر بلغ فقالوا علم البلاغة "21

2- وضح لطالب العلم العلوم التي يحتاج إليها قبل البلاغة حيث يقول: " فهو محتاج قبل كل شيء إلى معرفة اللغة التي يريد أن يخاطب بها، من مفرداتها وكيفية تركيبها، فإذا لم يعلم ذلك لم يكد كلامه أن يفهم، وهذه المعرفة تحصل له من علم اللغة والنحو والصرف"22.

3- عمل في كتابه على توضيح أسلوب العرب في كلامها بين خواصها وعامتها، لذا يعرف البلاغة اصطلاحا قائلا: " فالعلم الباحث عن القواعد التي تصير الكلام دالا على جميع المراد، وواضح الدلالة عليه يدعى علم البلاغة"23.

4- فصّل القول عن المحسنات وقال عنها: " ثم إن هناك محسنات للكلام، متى اشتمل عليها اكتسب قبولا عند سماعه.

5- أكد على علم المعاني وأنه عمدة علم البلاغة قائلا : " وهذا الفن هو معظم علم البلاغة" ، بعد أن وضع له تعريفا بسيطا قائلا: " وهو المسائل التي بمعرفتها يستطيع المتكلم أن يعبر عن جميع مراده بكلام خاص، وسمي علم المعاني لأن مسائله تعلمك كيف تفيد معاني كثيرة في ألفاظ قليلة "24.

6- تكرير ما قد قرره سابقا، وفي ذلك تعليم للمتعلم أن الشيء إذا تكرّر تقرّر في الذهن، ومثال ذلك حين يعود إلى تعريف البلاغة قائلا : " هو العلم بالقواعد التي يعرف بها أداء جميع المراد، لكلام ذي أساليب خاصة واضحة مع مايعين على قبوله، وذلك بتوفيته خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكتابة على وجهها، وإيداع المحسنات بلا كلفة مع فصاحة الكلام "25.

بعد تفصيل القول حول منهجية هذين العالمين في تيسير علم البلاغة ، فلاشك أن كلا منهما مباين اللآخر في تصوره وفي طريقته التعليمية ، وهذا التباين لا يضير تعليمية البلاغة ، وإنما هو من باب اختلاف التنوع الذي من شأنه أن يثري المنهج التعليمي ، ويجعله ناجعا لبلوغ الغاية والوصول إلى الأهداف المنشودة .

نتائج البحث:

بعد هذه الموازنة بين المنهجية التعليمية للعالمين في تقديم المادة البلاغية ، يمكن التوصل إلى النتائج الآتية:

1- عبد الرحمن الأخضري سار على منهج القدامى في نظم العلوم، وابن عاشور سار على منهج معاصريه في تبسيط العلوم ووفق المناهج الحديثة.

2- كلا العالمين راما التسهيل في مؤلفيهما إذ وضع الأول نظما للحفظ ، ولأن الشعر مظنة الحفظ ويسهل استذكاره عند الحاجة، والثاني وضع موجزا في علم البلاغة لطلبة العلم ،يكون مدخلا لهم إلى علوم البلاغة المتشعبة.

3- الأخضري سهل تعلبمية البلاغة، بدليل أنه أنقص من كتاب التلخيص، في حين أنّ من نظم التلخيص كغيره من العلماء، كجلال الدين السيوطي، زاد كثيرا من المسائل، وذلك في ألفيته المشهورة باسم "عقود الجمان"، حين يقول:

فهذه أرجوزة مثل الجمـان ضمنتها علم المعاني والبيان
لخصت فيها ما حوى التلخيص مع ضمّ زيادات كأمثال اللّمع
مع بيـان إصلاح لما ينتقد وذكر أشيـاء لها يُعتـمد
وضـم مافرقه المشبـه الله ربي أسأل أنتفع به 26

4- ترك الأخضري الردود والأمثلة الطويلة، وفيه دليل على أن نظمه نظم تيسيري لتعلم البلاغة، لذا فالجوهر المكنون ليس بالمختصر المخل ولاالطويل الممل، ومن أجل هذا ينصح السواد الأعظم من العلماء، بحفظه وتعلمه لكل مبتدئ في علم البلاغة.

5- كل من الأخضري والطاهر بن عاشور قصد الإيجاز، وعدم الإكثار من المصطلحات البلاغية، لأن من شأن الإسهاب في ذكر المصطلحات يؤدي إلى التطويل في الشروح، وهذا التطويل يؤدي إلى تفريعات، يكون طالب العلم في غنى عنها، حتى إن البلاغة تبدو له كالفلسفة، كما أن معرفة مصطلحات البلاغة ليس هو البلاغة في الحقيقة ، وحفظ ماورد في متونها ليس بالضرورة أن يحوّل طالب العلم إلى أن يكون بلاغيا، فهي مثل النحو، إن لم يمارس وحفظ فقط فلا يكون صاحبه نحويا، وإنما له علم بالنحو، وكذلك البلاغة.

6- منهج الإيجاز عند هذين العالمين سبيل لطالب العلم ، نحو تطبيق مايحفظه من معلومات في البلاغة وبالتطبيق تتكون لديه الملكة في هذا العلم، ولا تتكون لديه بحفظ المسائل البلاغية كمسائل المسند والمسند إليه ، والحذف وأغراضه، وغيرها من المباحث البلاغية ،لأن معرفة المسائل و حفظها في كل علم لا يكفي لاكتساب الملكة ، ومن ثم فلابدّ من الممارسة، ولأن حفظ المنظومات و المتون لايعين على اكتساب بلاغة العرب وأساليبهم في الكلام، وإنما الذي يعين ويبلغ بطالب هذا العلم أن يكون بليغا ، هو الممارسة والتطبيقات المكثفة على نصوص

القرآن الكريم خاصة، ومطالعة التفاسير المسئل اهتمت بالمسائل اللغوية، ومطالعة كتب الأدب المشهورة ، ومصادره المعتمدة، وإدمان النظر فيها باستمرار، لذا فإن البلاغة ليست كعلم النحو الذي يتميز بالإحكام في مسائله، حيث صار علما محكما منحصرا في مواضع محدودة، بل هو علم موجود في كل مكان لكونه يحيط بالمتكلم دائما.

ومن هنا نستطيع القول بأن تعليمية البلاغة، تكمن ميزتها عند ربطها بالتطبيق النصي، أي يجب أن تعلم وفق مايسمى في حقل تعليمية اللغات بالمقاربة النصية، التي تقتضي أن تنطلق العملية التعليمية لكل لغة من النص، ومن ثم فإن النص يكون مهمينا على القاعدة البلاغية، وهذا منهج الإمام عبد القاهر قديما إذ كان ينطلق في كتبه من النص القرآني أو النص الشعري، فكان لزاما على من تعلم البلاغة أن يجدّد من الاستعمالات البلاغية حسب النظريات الحديثة للتعليم ، والأفكار اللساني المعاصرة ، كما يجب البحث عن عيون النصوص الأدبية في كل كتاب أدبي ذي لغة راقية وبيان عال، ثم التطبيق عليها، وعدم الاقتصار على الأمثلة الواردة في الكتب القديمة، لأنه ربما كان هذا البيت أوذاك، فرب كتاب من كتب المعاصرين أحسن بيانا وأبلغ في المعنى وأكثر فائدة، من الأبيات المحلّلة في أحد الكتب القديمة المؤلفة في علم البلاغة، وتتبع فائدة الكلام هو المقصود من علم المعاني الذي تقوم البلاغة العربية ، يقول السكاكي : " اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان و غيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره "27.

الهوامش:

1- عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، مكتبة الشركة الجزائرية ، ط1 ،مج : 1، 1965 ، ص 444.
2- أحمد بن داود الأخضري ،العقد الجوهري في التعريف بالقطب الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دت ، ص 19.
3- الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، ط15 ، بيروت ، 2002 ،ص 288.
4- محمد سعيد إسير ، محمد أبو علي ، الخليل ، معجم في علم العروض ، دار العودة ، ط 1، بيروت ، 1982 ، ص 46 .
5- صديق سعيد خان القنوجي ، أبجد العلوم الوشي المرقوم في كتاب أطول العلوم ،دط ، دت، ج1 ، ص 700 .
6- نعيم زرور ، مقدمة كتاب مفتاح العلوم ، للسكاكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1983، ص 4.
7- القرآن الكريم ، برواية ورش عن نافع ، الدار الشامية ، دط ،دمشق، 2002،ص 448.
8- الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، تح : بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ،ط1 ،بيروت ، 2002 ، ص 265.
9- عبد الرحمن الأخضري، الجوهر المكنون في صدف ثلاثة فنون،تح:محمد عبد العزيز تصنيف ، مركز البصائر ، المدينة النبوية ، دط ، دت ، ص48.
10-المصدر نفسه ، ص 27.
11-المصدر نفسه ، ص 25.
12-المصدر نفسه ، ص 6 2.
13-المصدر نفسه ، ص25.
14-المصدر نفسه ، ص 28.
15-المصدر نفسه ، ص 29.
16-المصدر نفسه ، ص 30.

17-ابن مالك ، الألفية في علم النحو ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت ، 1985، ص 17.
18-عبد الرحمن الأخضري ، الجوهر المكنون ، ص 29.
19-المصدر نفسه ، ص 32.
20-محمد الطاهر بن عاشور،الموجز في البلاغة،المطبعة التونسية، ط1،تونس،دت، ص04.
21-المصدر نفسه ، ص04.
22-المصدر نفسه ، ص05.
23-المصدر نفسه ، 05.
24-المصدر مفسه ، ص06.
25-المصدر نفسه ، ص 06.
26- جلال الدين السيوطي، عقود الجمان في علم المعاني و البيان ، تح : إبراهيم الحمداني وأمين الجبار،دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 2011،ص07.
27- أبو يعقوب السكاكي، تح : نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية ، ط2 ، بيروت ، 1987 ،ص161 .